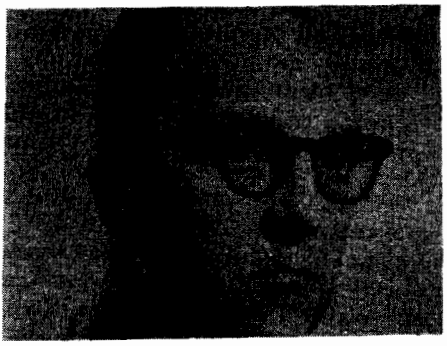

راسل ب . نای

يشغل راسل ب . نای كرسى الأستاذية فى اللغة الإنجليزية بجامعة ميشيجان منذ أن انضم إلى هيئة التدريس فى عام ١٩٤٠ . ومن عام ١٩٤٩ إلى ١٩٦٢ كان أستاذاً ورئيساً لقسم اللغة والأدب . وقبل ذلك قام بالتدريس فى كلية جوردان وجامعة ويسكونسن وكلية أدلفى . وفى عام ١٩٣٩ حصل على درجة الدكتوراه من جامعة ويسكونسن . أما عن جولاته ودراساته العلمية فتشتمل على الآتى :

منحة روكفلر للزمالة فى التاريخ الأمريكى ، ومنحة نيوبيرى للزمالة فى تاريخ الغرب الأوسط ، ومنحة السبتيين (دراسة فى أوربا) عام ١٩٥٤ ، ثم فى الفترة ١٩٥٧ – ١٩٥٨ . وجامعة إنديانا أبريل – يوليو ١٩٦٢ ، وجامعة ولاية مونتانا عام ١٩٦٣.وفى عام ١٩٦٢.عمل محاضراً فى معهد الدراسات القضائية والاجتماعية التابع لجامعة مرسيليا بفرنسا . نشر تسعة كتب فى مجالات التاريخ والترجمة أو السيرة . فى عام ١٩٤٤ نشر كتابه «جورج بانكروفت : الثائر الهندى المنبوذ» وفاز عنه بجائزتى بوليتزر ونوبف .

(٣) ميشيل – جيلوم سان جان دى كريفيكير : رسائل من فلاح أمريكى

بقلم : راسل ب . نای

وُجدت أمريكا فى أذهان الناس كمفهوم منذ وقت طويل قبل أن تنفصل بالثورة عن اوربا ، ففى عام ١٥١٥ كتب توماس مور « يوتوبيا » – أى قبل رحلة كولومبس الأولى بسنوات قليلة – لكى يبرز الأمل الواعد بذلك العالم المشرق المنعش عبر البحر . وكانت التقارير التى رويت عن الرحالة المكتشفين فى عصر النهضة قد شجعت انتشار أسطورة أمريكا كأرض اللآلى والخير كله ؛ كما سجل ذلك أول الزوار الإنجليز لولايتى كارولينا وقالوا : إنهم رأوا أناساً بسطاء بدائيين عاشوا سعداء بأسلوب العصر الذهبى نفسه . وقد توهج خيال ما يكل درايتون – أحد معاصرى شكسبير – عندما اطلع على الحملة التى قامت بها شركة فيرجينيا فى عام ١٦٠٦ لدرجة أنه وصف المستعمرة الجديدة بأنها « الجنة الفريدة على الأرض » .

أما بالنسبة لجون دن الذى نادى بقيمة الاستيطان الإنجليزى فى أمريكا فكانت أرضاً كتب لها أن تكون ذات فوائد أعظم حيث تستطيع أجيال المستقبل أن ترى « النمو فى طريقه إلى الكمال . » .

وإذا كان المستوطنون الذين تبعوا المكتشفين قد فشلوا فى العثور على أى شىء من هذا القبيل فإن الأسطورة رسخت : فبعد قرن تقريباً من الاستيطان الأول نجد الأسقف بيركلى ما زال يتكلم عن أمريكا : « ذلك المناخ السعيد . . . ومهد البراءة حيث الطبيعة ترشد

والفضيلة تحكم ! » .

وقد أضاف عصر العقل إلى هذه الأسطورة أسطورة أمريكا الأمل ، وفرصة الإنسان لكى يهرب نهائياً من خطايا العالم القديم الفاسد والمنهك ، وقد اعتبر مستوطنو نيو إنجلاند من أتباع كالفن أمريكا على أنها أرض كنعان التى وجههم إليها الرب ؛ كما وجه من قبل بنى إسرائيل ! وكان إدوارد جونسون الذى رحل إلى ماساتشوستس مع أول موجة للمستوطنين فى عام ١٦٣٠ – كان يؤمن « بأنها المكان الذى سيخلق فيه الإله سماء جديدة ، وأرضاً جديدة ، وكنائس جديدة ، وكومنولثاً جديداً تماماً » كانت أمريكا بالنسبة لهؤلاء الرجال بمثابة عدن جديدة حيث استطاع آدم أن يحصل على فرصته الثانية . وقد حافظت الأجيال المتتابعة على هذا الأمل الذى عاشت فى ظله على أمل أن يتحقق ولو بعد ألف عام .

وفى أثناء الثورة الأمريكية تصور الفلاسفة الإنجليز والفرنسيون (وبخاصة الفرنسيون) نموذجاً لما يجب أن يكون عليه المجتمع المنطقى المعقول فى أفضل صوره . وقد أمدتهم أمريكا بالفرصة لإقامة مثل هذا التصور ووضعه فى محك التجربة فى الوقت نفسه : قال لوك فى إحدى ملاحظاته : « فى البدء كانت أمريكا هى العالم كله » وبذلك لخص عقيدة عصر التنوير التى نادت بأنه فى إمكان الإنسان أن يبنى فى هذه البيئة الجديدة غير الملوثة ذلك المجتمع الذى كان عليه أن يقيمه منذ البدء . بهذا بدت الولايات المتحدة قادرة على إيجاد المكان الذى يمكن أن تحقق فيه ما فشلت أوربا فيه من قبل .

هاتان الأسطورتان المنتشرتان والراسختان بأن أمريكا هى الجنة وهى الأمل اتحدتا لكى تؤثرا على التفكير فى أوربا فيما يتصل بالعالم الجديد حين أصبح ميشيل – جيلوم سان جان دى كريفيكير مشهوراً كممثل « للفلاح الأمريكى » الذى استقر فى مقاطعة أورانج بنيويورك التى كانت قبل ذلك المستعمرة البريطانية فى أمريكا الشمالية .

ولد كريفيكير فى مدينة كين بنورماندى فى عام ١٧٣٥ . وفى السادسة عشرة من عمره أرسل إلى إنجلترا حيث قضى ست سنوات فى المدرسة مما أثار اهتمامه العميق بأمريكا الشمالية . وفى عام ١٧٥٤ رحل إلى كندا كملازم فى الجيش الفرنسى متخصص فى رسم الخرائط والجداول . قام باختراق منطقة البحيرات العظمى ، وحارب فى معركة كويبك عام ١٧٥٩ ، ثم رحل بعدها إلى المستعمرات الأمريكية . شق طريقه عبر بنسلفانيا ونيويورك كتاجر ومساح

للأراضى ، وحصل على حق المواطنة فى نيويورك عام ١٧٦٥ ، كما أطلق على نفسه اسماً إنجليزياً هو : جون هكتور سانت جون . وبعد ذلك بأربع سنوات تزوج مهيتابل تبت ابنة أحد التجار فى يونكرز ، وابتاع مزرعة فى مقاطعة أورانج بحيث استقر هناك لإدارة هذه الضيعة .

إن ذكرى الأيام الحلوة العذبة التى واكبت السنوات العشر التالية التى قضاها فى ضيعته « باين هيل » لم تفارق مخيلته إطلاقاً : فيها ولد لكريفيكير ثلاثة أطفال ، وفيها أيضاً كتب المقالات التى كونت فيما بعد ماعرف باسم « رسائل من فلاح أمريكى » . ذات مرة قال للدوق دى لا روشيفوكو : « إننى لم أكن سوى مساحٍ بسيطٍ للأراضى ، وزارع لأرضى بنفسى ، أو جوال عبر غابات الوطن ! » .

كان صادقاً فى كلامه هذا بمقاييس عصره ، لكنه كان فى الوقت نفسه أرستقراطياً فرنسياً له زوجة ثرية وضيعة مزدهرة : أى أنه لم يكن تماماً ذلك الفلاح البسيط المتواضع الذى تظاهر به !

وعلى أية حال فإن الجدل الثورى السائد سرعان ما فرض نفسه عليه فى عزلته الريفية ، وعلى الرغم من أن كريفيكير كانت له تحفظات معينة على مثيرى الثورة الذين وصفهم « بأنهم يصرخون باسم الحرية دون أن يعرفوا ماهى » ، فإنه رفض أن ينحاز إلى أى جانب مما أشعل ضده عداء المحافظين والراديكاليين على حد سواء ، بمجرد أن اندلع القتال : فقد داست فصائل الجنود مزرعته مرتين ، وبحلول عام ١٧٨٠ بلغ عداء جيرانه له حداً جعل موقفه من المجتمع لا يمكن الدفاع عنه . لذلك حصل على تصريح بريطانى لكى يبحر من نيويورك إلى لندن فى عام ١٧٨٠ ، وقد حمل معه حقيبة سفر صغيرة مملوءة بالمخطوطات . وعلى كل حال فقد اتهم بالجاسوسية وألقى به فى السجن ثلاثة أشهر وأخيراً سمح له بأن يرحل فى أواخر ذلك العام . باع مخطوطاته مقابل ثلاثين جنيهاً إلى ناشر فى لندن استطاع أن ينشرها فى عام ١٧٨٢ بإهداء إلى الفيلسوف الفرنسى رينال تحت عنوان « رسائل من فلاح أمريكى يصف بعض المواقف الإقليمية والسلوك والعادات ، ويقدم فكرة عن وضع شعب أمريكا الشمالية . وقد كتب ذلك إلى صديق فى إنجلترا بقلم ج . هكتور سانت جون »[1] .

لاقت رسائل كريفيكير نجاحاً فورياً فى لندن وفى أوربا وقوبل بالترحاب فى صالونات باريس المتحذلقة التى اعتبرته من نجوم المجتمع . وكانت الاتجاهات المتأثرة بفلسفة روسو والتى

تضمنها كتابه قد وجدت صدى عميقاً فى الخيال الشعبى السائد فى حين أن وصفه لحياته الرعوية الوادعة فى (باين هيل) بدا تجسيداً عملياً تاماً لحياة الطبيعة .

وقد أعادته الحكومة الفرنسية مرة أخرى إلى نيويورك بصفته قنصلاً عاماً لها فى عام ١٧٨٣ وذلك بعد أن استتب السلام ، لكنه وجد أن زوجته قد ماتت ، والتهمت النيران منزله فى إحدى غارات الهنود ، فى حين تكفل بأطفاله غريب رقيق القلب من بوسطن . وبعد أن جمع شظايا حياته المتناثرة استقر كريفيكير فى نيويورك سبع سنوات باذلاً فيها أقصى ما فى وسعه لكى يحافظ على حيوية الصداقة الأمريكية الفرنسية فى أثناء المرحلة الصعبة التى واكبت دبلوماسية ما بعد الحرب . وقد وصفه وليم شورت سكرتير جيفرسون بقوله : «إنه لا يوجد إنسان يفهم مثله على الوجه الأكمل حقيقة مصالح البلدين والكيفية التى تؤثر وتتأثر بها ، كما لا يوجد من يملك حماسه فى تنمية العلاقات المزدوجة . » .

لقد ساعد فى تأسيس شركة ملاحية للشحن التجارى بين نيويورك ولوريان ، وكتب فى صحف الولايات المتحدة وفرنسا ، واهتم اهتماماً عظيماً بأساليب الزراعة العلمية وهو الاهتمام الذى شارك فيه نفسه جيفرسون ، وقد أدخل طرقا جديدة لزراعة البطاطس فى نورماندى ، والبرسيم فى الولايات المتحدة بعد أن اختبر البذور وأجرى التجارب على المحصولات ؛ مما أدى إلى انتخابه عضواً فى الجمعية الملكية للزراعة فى فرنسا والجمعية الفلسفية الأمريكية . وقد أصبح صديقاً حميماً لواشنطن وفرانكلين وخاصة توماس جيفرسون الذى حضر زواج ابنته .

وفى عام ١٧٩٠ عاد أدراجه إلى فرنسا بعد أن تدهورت صحته واستقر فى ضيعته بالقرب من روان حيث قضى وقت فراغه فى سرد رحلاته إلى أمريكا فى كتاب من ثلاثة أجزاء نشر فى عام ١٨٠١ بعنوان «رحلات عبر بنسلفانيا العليا وولاية نيويورك» ولقد أجبرته وطأة المرض المتواصل على الاعتزال النهائى ومات فى عام ١٨١٣ .

ورسائل كريفيكير التى تتخذ شكل المقالات بالفعل كتبت على نمط رواية القرن الثامن عشر التى تتخذ من الرسائل المتتابعة فصولاً لها ، وهى الصيغة المفضلة فى ذلك الوقت . وبلا شك فقد ساعده هذا المنهج على أن يجعل تعليقاته على تجربته الأمريكية تجمع بين العمومية والخصوصية فى الوقت نفسه .

وقد افترض أن كاتب هذه الرسائل فلاح أمريكى يدعى جيمس كرد على سلسلة من

الأسئلة الموجهة إليه من زائر إنجليزى مثقف يدعى السيد ف . ب . يرغب فى معرفة المزيد عن أمريكا[٢] .

وينتمى جيمس هذا إلى الجيل الثالث من الأمريكيين ، فهو مزارع من أصحاب الأراضى ، يتميز بالأمانة والإخلاص ، ومن الواضح أن قدرته العقلية محدودة ، لكنه يمتلك « نصيباً لا بأس به من الإدراك السليم ، واللماحية فى الحكم على الناس ، والخيال الخصب ، والقلب الرقيق الطيب » .

وبالرغم من أنه ينفى عن نفسه صفة الفيلسوف والسياسى والمفكر الروحى والعاشق للطبيعة ، فإن جيمس الذى يقوم بدور كريفيكير نفسه يتكلم عن أفكار أبعد ما تكون عن البساطة بل يستطيع الكتابة بنثر متحذلق يحمل فى طياته المذاق الغالى (الفرنسى القديم) إذا حتم عليه الموقف هذا . وبالفعل فإنه فى الرسائل الثلاث الأولى يبدأ منهج السؤال والجواب فى الاختفاء تدريجيا حتى الرسالة الخامسة التى يترك فيها جيمس دوره صراحة لكى يحل المؤلف محله . تظل الحال هكذا حتى الرسالة الأخيرة التى يضع فيها كريفيكير قناع « جيمس الفلاح » على وجهه مرة أخرى .

وتختلف الرسائل الاثنتاعشرة من حيث الطول والتنظيم اختلافاً شاسعاً بحيث تعكس العجلة الواضحة فى تنقيحها سواء من كريفيكير نفسه أو من ناشره اللندنى :

فى الرسالة الأولى بعد الانتهاء من تقديم الشخصيات والموقف ، فإن الرد يأتى مباشرة على سؤال السيد ف . ب . : « على أى صورة تبدو الحياة فى أمريكا ؟ » فيتطابق وصف جيمس تماماً ومايتوقعه الناس فى عصر التنوير : إنها حياة العقل والفردوسية والقريبة من الطبيعة والمنظمة والهادئة والصحية والمزدهرة إن مايؤكده جيمس على أنه فضائل المجتمع الأمريكى هو تماما نقيض الرذائل الأوربية ! إنها حكومة القوانين البسيطة والعادلة ، الحكومة التى لا تطلب الكثير من « الفلاح النشيط » الذى لا يطلب منها بدوره سوى أقل القليل . يكتب جيمس مشيراً بوضوح إلى أوربا فيقول :

« نحن هنا ليس لدينا أى حرب تجبرنا على هجرة حقولنا . إن عقيدتنا لا تقهر الزارعين ، لأننا لانعرف تلك النظم الإقطاعية التى استعبدت الكثيرين . » إن أمريكا – طبقاً لتحليله – هى أرض الفرصة التى لا تبارى ؛ فهى تمنح « مجالاً عظيماً للعمل والحركة » من أجل « طاقة الأجيال المستقبلة » .

وكانت الرسالة الثانية إجابة عن السؤال : «ما صورة حياة الفلاح الأمريكى إذا ما قورنت بقرينه الأوربى ؟ »

يؤكد جيمس أن الاختلاف الرئيسى يكمن فى استقلال الأمريكى ، كتب يقول : «إن اللحظة التى أدخل فيها أرضى فإن فكرة الازدهار المشرق ، والحق الذى لامراء فيه ، والاستقلال تغمر عقلى » فالأمريكى يمتلك أرضه برسوم بسيطة ومحددة وفى ظل حكومة ذات سلطة محدودة تماماً ، ويحدد جيمس مفهومه للقانون فيقول : «إن الدور الذى يؤديه القانون فى أمريكا هو الدور الذى أقوم به نفسه فى مزرعتى . إنه لجام وقيد لكى يمنع القوى والشره من انتهاك حق الضعيف . ثم يشرح بتفصيل أكثر مفهوم الديمقراطية الزراعية النامية فيقول : إنها تتمثل فى «طائفة الزراع الذين يملكون حرية العمل وحرية الفكر فى ظل نظام يوفر لهم السعادة بمعنى الكلمة . »

ويختم جيمس كلامه بقوله : «إن جنسية الأمريكى هى خير ما يمكن أن يمتلكه الإنسان المحظوظ . . شكراً لله ، إنه قدر لى أن أصير فلاحاً أمريكياً بدلاً من جلف روسى أو أجير مجرى ! »

وأجابت الرسالة الثالثة عن السؤال : «من الأمريكى ؟ » لذلك كانت أطول وأعقد رسالة بحكم أنه لم يكن سؤالاً تسهل إجابته . وعلى الرغم من إسرافها فى التعبير العاطفى ، وعدم التزامها بخط محدد ، ووقوعها فى خطأ التكرار والحشو – فإنها تعد أهم مقالة فى مقالات كريفيكير ، بل أهم تقرير له فى هذا الصدد .

تنهض المقالة على ثلاثة اهتمامات عامة : الأول : عندما تكتشف الفروق بين المجتمع الأمريكى والمجتمع الأوربى ، والثانى : عندما تحلل التجمعات الإقليمية الأمريكية وتتعرف – ربما لأول مرة – على المعنى الفريد للحدود الأمريكية ، والثالث : عندما تفسر عملية الهضم والاستيعاب التى جعلت الأوربى يصبح «ذلك الرجل الجديد » : أى الأمريكى .

فى المقام الأول يشرح كريفيكير – من خلال جيمس – خصائص المجتمع الأمريكى بما يحمله من حيوية وديناميكية ؛ إذ إنه «مشحون بروح الرغبة فى الإنتاج التى لا تحده أى قيود أو عقبات ؛ إذ إن كل فرد يعمل من أجل نفسه ! » إنه أيضا «مجتمع حديث » شيد من مواد جديدة فى قارة جديدة . لقد اختفى من العالم الجديد ذلك المشهد الذى نرى فيه «السادة العظماء الذين يملكون كل شىء ، والقطيع البشرى الذى لا يملك شيئا . » . وبدلا من ذلك

يبدو الأمريكيون «شعباً متوسط الحال . . . ذا قدرة طيبة» متحداً «فى ظل قيود حريرية لحكومة رقيقة . . . . إنهم يملكون التربة التى يزرعونها ، وهم أعضاء فى الحكومة التى يخضعون لأوامرها ، وهم الذين يصوغون قوانينهم بأنفسهم» . إن مجتمعهم يتيح «للإنسان أن يكون حراً كما يهوى وكما يجب . . . . إنه أكثر مجتمعات العالم كمالاً» .

وعلى حين أن المجتمع الأمريكى «لايحتوى على تنويعة الألوان والظلال التى يمكن ملاحظتها فى المجتمع الأوربى» – فإن كريفيكير يوضح أن للمجتمع الأمريكى الاختلافات الخاصة به : هناك أنماط مميزة من الأمريكيين تختلف فيما بينها باختلاف البيئات.يستمر فى تحليله مستخدماً استعارة مطولة من علم النبات ، تبدو فى منتهى الحذلقة بالنسبة لجيمس فيقول : «إن البشر مثل النباتات» يختلفون فيما بينهم «طبقاً لنوعية التربة والتعرض للعوامل الجوية التى ينمون فيها» لذلك فإن البيئة الأمريكية تنتج أمريكيين تنبع طبيعتهم المميزة من «الهواء الذى نتنفسه والمناخ الذى نعيشه ، والحكومة التى نطيعها ، والنظام الدينى الذى نملكه ، والطبيعة التى تميز أعمالنا» .

يوضح كريفيكير أن المجتمع الساحلى قد أنتج طبقة اجتماعية جريئة ومنتجة من البحارة والتجار وسكان المدن الذين يتميزون بالروح العدوانية واللامنتمية والخصبة والعنيدة .

وكان الخط التالى من الاستيطان قد أنتج فلاحين من «الملاك المستقلين» مثل جيمس نفسه . وخلْف كل هؤلاء بطول خط الحدود كان ساكنو الحدود الخارجون على القانون القساة الذين لا يقيمون لأى شىء وزناً . وقد وصفهم كريفيكير بأنهم طريدو المجتمع ، من سلالات غير نقية ، نصف متحضرين ونصف متوحشين . كانوا أول من توغل فى البرارى ولذلك تطبعوا بالوحشية نفسها . لكن كان هؤلاء الناس الذين تميزوا بالعنف والكآبة والإباحية هم الذين مهدوا الخطوة الأولى الضرورية تجاه تطوير المجتمع الزراعى المستقر الذى أتى فى المرحلة التالية لهم وذلك على سبيل سخرية الزمن ! لقد فتحوا الطريق «لظهور طبقة ثانية بل أفضل ، تمثلت فى الملاك الأمريكيين الحقيقيين . . . كانوا أكثر إنتاجاً ورغبة فى إتمام التحسينات ، وتحويل البيت المبنى من أعمدة خشبية إلى محل ملائم للإقامة المستقرة . . . . واستطاعوا تغيير هذه البلاد البربرية فى سنوات قليلة إلى منطقة ملائمة خصبة ومنظمة تنظيماً حسناً» .

لكن مهما كانت الاختلافات الإقليمية بين الأمريكيين فإنها اختفت عندما «امتزجوا جميعاً

وشكلوا جنساً جديداً من البشر » : فى فقرة طويلة ومنسقة بدقة من الرسالة الثالثة يصف كريفيكير بالتفصيل كل التغيرات السيكلوجية التى تحول الأوربيين إلى أمريكيين : يأتى المهاجر ملتصقاً بماضيه الأوربى إلى بلاد واسعة ، جميلة ، خاوية ، مفتوحة ، وعلى النقيض تماماً من أوربا ، « حيث كل مكان فيها يفيض بالخير ! » كتب جيمس يقول :

« بمجرد أن يتنفس المهاجر هواءنا فإنه فى الحال يضع مشروعات وتصميمات لم يكن ليفكر فيها قط فى البلد التى أتى منها » . وعلى ذلك فإن أول خطوة له نحو « التأمرك » إنما هى رفضه لكل الاتجاهات والأخلاقيات القديمة لأوربا . ثم تأتى الخطوة التالية عندما يدرك الفرص التى تقدمها إليه بلده الجديد . يتساءل جيمس : « إذا كان المهاجر يملك موهبة أو خبرة معينة فإنه يبذل ما فى وسعه لكى يحصل بها على حياة كريمة ناجحة » إنه يجد الاستقلال والأجور العالية والغذاء الوافر وأهم من هذا كله فإنه « يغير مستواه . . . . إنه يشعر الآن بأنه إنسان لأن الآخرين يعاملونه على هذا الأساس » إنه يبدأ فى التفكير بأسلوب مختلف ، أسلوب أمريكى طالما أنه أصبح « إنساناً جديداً يسلك على أساس من مبادئ جديدة ، لذلك يتحتم عليه أن يعتنق أفكارا جديدة وأن يكون آراء جديدة » .

من تلك السلالة المتناقضة ، « ذلك المزيج الإنجليزى ، الأسكتلندى ، الأيرلندى ، الفرنسى ، الهولندى ، الألمانى ، السويدى ؛ ظهر إلى الوجود ذلك الجنس المسمى بالأمريكيين » . وكما وصف كريفيكير التحول من الأوربى إلى الأمريكى فإنه يعتمد على تلك الفرصة الثانية : أى الفرصة للبدء من جديد مرة أخرى ، تلك التى تكمن فى قلب الحلم الأمريكى . إنها لذات مغزى أن تظهر كلمة « جديد » سبع عشرة مرة فى الرسالة الثالثة وغالباً ما يكون فى معيتها كلمات مثل « تبدل الشخصية » و « التجديد » و « البعث » . ويرى كريفيكير هؤلاء الأمريكيين الذين ولدوا مرة أخرى فى عدن العالم الجديد على أنهم أمل العالم ، « والحجاج الغربيين الذين حملوا معهم كل الإنجازات العظيمة فى الفنون والعلوم ، وكل الحيوية والخبرة التى بدأت منذ زمن بعيد فى الشرق . إنهم سوف يكملون الدائرة . . وذات يوم سيكونون السبب فى تغييرات أعظم فى العالم » .

إن مفهوم أمريكا كأرض الفرصة والأمل يسرى فى كل سطور الرسالة الثالثة مما يمنحها الوحدة التى تميزها . ويؤكد كريفيكير باستمرار انفتاح المجتمع الأمريكى وحركته المرنة والسائلة – ويكرر أن فى أمريكا مكاناً لكل إنسان » بكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى :

فهناك آلاف الفدادين بدون ضرائب ، والأراضى التى لم تزرع ، والأمل الذى شكل إغراءً ضخماً لأوربا الجائعة لمزيد من الأرض . فى تلك « المصحة الأمريكية العظمى » يمكن « فقراء أوربا » أن يجدو السلام والرخاء والأشياء الطيبة فى الحياة ، أى أن كل ما ينقص الكتل الشعبية فى أوربا تجده هنا لكل من يعمل ويسعى . هنا « يستطيع الخادم أن يتحول إلى سيد ! وعبد الأمير الطاغى إلى رجل حر » . كما يؤكد جيمس الذى كان مجرد صفر وأصبح الآن لأول مرة فى حياته له كيان معترف به » ولكل مهاجر نشيط منتج تقول أمريكا :

« مرحباً بك على سواحلى أيها الأوربى المنكوب ! بارك الله فى الساعة التى رأيت فيها حقولى الخضراء المنعشة ، وأنهارى المتدفقة الجميلة ، وجبالى الخضراء ! فإذا كدحت فلدى الخبز لك ، وإذا كنت مخلصاً جاداً ، ونشيطاً فسوف أسبغ عليك خيراً عميماً عندما تحصل على راحتك واستقلالك . سأمنحك الحقول التى تمدك بالغذاء والكساء ، كذلك مدفأة مريحة لكى تجلس بجوارها ، وتقص على أطفالك كيف ازدهرت أحوالك ؟ سأمنحك أيضا سريراً وثيراً لكى تستريح عليه . وبالإضافة إلى كل ذلك سأحصنك بكل ضمانات الرجل الحر . . . . اذهب واعمل ما فى وسعك فسوف تزدهر بشرط أن تكون عادلاً ، معترفاً بالجميل ، ومحباً للعمل الشاق » .

وعلى سبيل التوضيح فإنه يلحق بالرسالة قصة أندرو الأسكتلندى الذى جاء إلى بنسلفانيا خاوى الوفاض ، واقتطع لنفسه أرضاً عند الحدود ، وفى سنوات قلائل كان يملك بيتاً وست بقرات وحصانين وأوعية للطبخ وأدوات عدة بما يساوى ستمائة وأربعين دولاراً . وذلك للتدليل المناسب على « النتائج السعيدة التى تجىء فى أعقاب الجدية والإقدام على العمل الشاق ، وعندما يتحد الإنسان مع الأرض والحرية » .

أما الرسالتان التاليتان – الرابعة والخامسة – فإن جيمس يقدم سرداً من خلالها لرحلة إلى جزيرة نانتاكيت ، وتمثلان تحولاً إلى درجة أقل من الحماس العاطفى . يقدم فيها سؤالاً آخر فى مناقشته لعوامل النجاح فى النظام الأمريكى :

إن سكان نانتاكيت يتحملون شظف العيش باعتمادهم على صيد الأسماك ، وإذا كان مجتمع الصيادين هذا الذى يعيش على جزيرة صخرية جرداء مجتمعاً سعيداً متفتحاً ومستقراً مثل مجتمعه المزدهر الذى يعيش فيه فلاحو نيويورك – فإن هذا يثبت أن نجاح المجتمع الأمريكى لا يعتمد فقط على ظروف الاستيطان وحدها ، بل يعتمد أكثر على المبادئ الأساس للاقتصاد .

هكذا كان الوضع ؛ لأن جيمس رأى فى نانتاكيت العوامل الفعالة التى فى نيويورك : فكلا المجتمعين يضعان قيوداً قليلة على المشروعات الفردية . وكلاهما يسمح بإطلاق العنان «للإنتاج المحلى والإصرار على تحقيقه لكل الناس» وذلك «بإمدادهم بنظام من القوانين العقلانية القائمة على الحرية التامة» بحيث يحصل المواطنون على «العائد من مجهودهم كاملاً . . . . مع السماح لهم بالاستمتاع بثمار كدهم . . . بمنتهى الحرية وبلا عقبات» وعلى الرغم من أن اصطلاح «دعه يعمل» لم يكن شائعاً فى المفهوم الأمريكى – فإنه كان المبدأ الذى وجد فيه جيمس بوضوح الخاصية العامة للنجاح فى كل من المجتمعين .

وفى الرسائل : السادسة والسابعة والثامنة التى تستمر فى مسح نانتاكيت ومعها كروم مارتا القريبة منها – فإن كريفيكير يستغنى فى الواقع عن شخصية جيمس . تعتمد الرسائل على الأساليب التقليدية المستخدمة فى أدب الرحلات المعاصر ، وذلك حتى الرسالة التاسعة التى يغير فيها كريفيكير بلا تمهيد المنظر إلى تشارلز تاون فى كارولينا حيث المجتمع الذى تسوده قيم التجارة والشغب واقتناء العبيد بسبب سطوة المحامين والزراع والتجار . (والشىء الذى له دلالة هنا أنه لا محامين فى مجتمع جيمس على حين يوجد واحد فقط فى نانتاكيت ، فى الوقت الذى يوجد منهم فى تشارلز تاون كتيبة بأكملها) .

ولا يمتاز وصفه للمدينة بالجاذبية ؛ فقد قامت على الرق الذى يمثل بالنسبة لكريفيكير النظام «الذى يشيع أبشع صور البؤس والشقاء» ، لذلك تبدو له تشارلز تاون انحرافاً وتشويهاً للنموذج الأمريكى : فهى تفتقر تماماً إلى الاتزان والاعتدال اللذين يميزان ديمقراطية نيويورك الزراعية ، وتخلو من التناغم الخلاق الذى يميز حياة السواحل فى نانتاكيت .

وكانت المناقشة التى دارت حول المجتمع الأمريكى ، والتى أثارها أول سؤال للسيد ف . ب . قد أتت لنهايتها فى تشارلز تاون : فقد قدم كريفيكير لقرائه ثلاثة ملامح للحضارة الأمريكية النامية : الديمقراطية الزراعية الريفية باستقلالها وكفايتهاالذاتية ، والمجتمع غير الزراعى بنظامه الداخلى المعقد الذى يعتمد فيه كل جزء على الآخر والذى ينهض على أساس اقتصادى مختلف تماماً ، وأخيراً المجتمع الحضرى بملامحه التجارية غير الإنسانية ، والملوث بلعنة الرق ، والبعيد عن منابع الطبيعة ومن ثم فإنه ينكر قيمها ضمناً .

ويعترف كريفيكير بأن تعليقاته النهائية لم تكن سوى انطباعات حزينة من أثر مواجهته المفاجئة لعبد زنجى ترك ليموت فى قفص كعقاب له على عدم إطاعته الأوامر ! ولكن إذا كان

هذا بمثابة رأى كريفيكير فى المصير النهائى لأمريكا – فلابد أن يكون رأياً مريراً وخالياً من الأوهام .

فى هذه النقطة يعكس الكتاب إعداده المتعجل للطباعة والنشر ، وتبدو العلاقة واهنة بين الرسالتين العاشرة والحادية عشرة وبين الخطوط الرئيسة للكتاب .

وتحتوى الرسالة العاشرة على بعض الملاحظات عن الحيّات والطيور ذات الهديل وذلك للقراء المهتمين بالتاريخ الطبيعى ، بما فى ذلك وصف زاخر بالألوان والظلال للقتال مع حية .

أما الرسالة الحادية عشرة فهى سرد لا مبرر له لزيارة مسافر روسى لمنزل جون بارترام عالم بنسلفانيا الطبيعى الذى ينتمى إلى طائفة الكويكر .

لكن فى الرسالة الثانية عشرة – وهى الأخيرة – يتقمص كريفيكير مرة أخرى شخصية جيمس الذى يعود ليتكلم عن تجاربه فى الثورة الأمريكية : إنه يتساءل من خلال جيمس : كيف لمحب السلام والحرية أن يختار بين أعداء متصارعين مثل هؤلاء ؟ ثم يختم حديثه آسفاً عندما يقول : « إن ذلك الذى يحكم نفسه طبقاً لما يؤمن به من مبادئ يمكن أن يقع تحت طائلة العقاب من طرف ما لهذه المبادئ نفسها » .

هكذا عندما أصيب جيمس بالإحباط ورأى الحقائق عارية فى مجتمعه المنقسم على ذاته – فإنه قرر أن ينضم إلى الهنود الذين يعيشون « فى غابة الطبيعة العظمى . . بسهولة وسمو وسلام أعظم مما تستطيع أن تتصور » هنا يختم كريفيكير كتابه عندما نرى الفلاح جيمس يتحرك إلى مجتمع الهنود البسيط الذى لم يتلوث ، يحدوه مزيج من الحزن والتفاؤل على أمل أن يجد هناك الأمن والتناغم والنظام الذى تدمره كل من الحرب والحضارة ! وإذا كان كومنولث جيمس المكون من ملاك الأراضى الأحرار المتنورين لا يمكن أن يعيش فى عالم الثورة ، أو حتى فى عالم السلام إلا إذا تحول أخيرا إلى تشارلز تاون أخرى – فإن الهروب إلى الغابة – كما يبدو لكريفيكير – يمثل الإجابة الفريدة لهذا التساؤل .

كان كريفيكير معجباً بروسو وابناً للرومانسية الفرنسية . كتب ذات مرة : إن « العاطفة والإحساس » هما المرشدان الوحيدان اللذان يعرفهما » لقد وجد فى المجتمع الأمريكى ما أعده فلاسفة عصر التنوير الطبيعيون لكى يجده ، أى أرض يعيش عليها فلاحون سعداء يعيشون فى مجتمع حر يؤمن بالمساواة ، وقريب من الطبيعة الخيرة .

إن الصورة التى يقدمها لأمريكا فى الرسائل الخمس الأولى على الأقل صور مثالية عاطفية

للغاية ، لكنها بالرغم من ذلك كانت تعبيراً واعياً ومتعاطفاً مع الشعور السائد بالحلم بأن أمريكا جنة وأمل ، هذا الحلم الذى تمثل فى الصورة التى انطبعت فى ذهن أول جيل من الأمريكيين .

لكن مفهوم كريفيكير لهذا المجتمع الرعوى المثالى ينبغى ألا يؤخذ ببساطة على أنه مفهومه للأركاديا (المجتمع المثالى فى بساطته وبراءته) . لقد كان مدركاً تماماً – حتى فى رسائله الأولى – لثغرات الضعف فى الطبيعة البشرية ، وكان مدركاً بالدرجة نفسها للحقيقة التى تؤكد أن البشر الناقصين لن يخلقوا مجتمعاً كاملاً ولا حتى فى ذلك الجو الموانى فى أمريكا . إنه يلاحظ فى الرسالة الثالثة أن : « الخير والشر كما أراهما فى كل المجتمعات ، وإنه لمن العبث أن نبحث عن أية بقعة لا نجد فيها مزيجا من العنصرين ! » كانت الحياة الخيرة التى بحث عنها والتى عاشها فى أول الأمر فى باين هيل فى منطقة بين مجتمع أوربا المتحلل ذى السلطة المطلقة حيث « السادة العظام يملكون كل شىء » ، وبين مجتمع الحدود الفوضوى المتوحش . وكرجل ينتمى إلى عصر التنوير فإن كريفيكير كان يعتقد أن المستوى المثالى للحياة يوجد فى مكان ما بين البدائية والحذلقة الحضارية المبالغ فيها . أى الحياة القريبة بما فيه الكفاية إلى الطبيعة حتى تتشرب بآثارها البعيدة بما فيه الكفاية عن النتائج الفاسدة للحضارة المبالغ فيها .

هنا فى هذه المنطقة الوسطى يستطيع الناس أن يتعاونوا معاً لكى يعيشوا حياة منظمة يترك فيها العنان للخير فى الطبيعة البشرية ، فى حين يتم فيها السيطرة والتحكم فى العنصر المدمر . إن مجتمعاً مثل هذا لا يمكن أن ينهض فى أوربا التى لا تملك الوسائل الكافية للحفاظ عليه ، والتى يتحتم عليها أن تقهر قرونا من التقاليد المتوارثة ، لكن هذا بدا ممكناً أو على الأقل هكذا لكريفيكير فى أيام جيمس .

هنا يكمن وجه الغرابة فى رسائل كريفيكير التى توضح – عند قراءتها ككل – افتقارها العجيب إلى خط فكرى موحد ، فهى تبدأ بالتفاؤل وتنتهى بالشك . ويبرز فى الختام اعتراف وجل يلمح ولكن بوضوح بأن الحلم الأمريكى كان مجرد حلم ، وبأن المجتمع العقلانى الذى يتألف من مواطنين أحرار والذى وعد به الحلم لم يكن سوى مادة لأشياء تدخل فى باب الأمل أكثر من باب الواقع ! إن السلام الريفى الذى يميز ضيعة جيمس والذى وصفه بحيوية بالغة فى الرسائل الأولى ، هذا السلام يقف على الكفة المقابلة للجشع المادى الذى تتميز به تشارلزتاون . فيقف الملاك الزراع فى مقاطعة أورانج وصائدو السمك ذوو الحيوية المتدفقة فى نانتاكيت فى مواجهة رجال الحدود نصف المتوحشين وأصحاب العبيد المشهورين بقسوتهم فى

كارولينا ، فى حين أن الكومنولث المتناغم للملاك الأحرار يقع ضحية التمزق بسبب المعارك والحروب من حين لآخر : فقد كتب كريفيكير فى الرسالة الحادية عشرة : إن « الإنسان حيوان يعيش على الضحايا بسبب رغبته فى السطو وإراقة الدماء المزروعة فى قلبه » ، لذلك لايتوقع منه سوى خير ضئيل . ليس هناك من مهرب من هذه الحقيقة سواء فى الغابة أو المدينة ، فى العالم القديم أو العالم الجديد !

« أين إذن تستطيع أن تدرك أن الطبيعة تهدف إلى سعادتنا ؟ هل يمكن أن تفضل حياة الناس فى الغابات على حياتهم فى موقف أكثر تحضراً ؟ إن الشر يسود كلتا الحالتين :

فى الحالة الأولى يلتهم الناس بعضهم بعضاً عندما لا يجدون ما يأكلونه !

وفى الحالة الأخرى غالباً ما يُهلك بعضهم بعضا فى الصراع على امتلاك المكان ! وفى اعتقادى أن الآثام والشرور التى فى الحالة الأخيرة تفوق تلك التى فى الأولى حيث الشر الحقيقى أكثر ندرة ، وأقل رسوخاً ، وأضأل حجماً . لكننا نرغب فى أن نرى الأرض وقد عمرها الناس ، وأن تتحقق سعادة كل الأمم التى قيل : إنها تزيد بزيادة عدد السعداء . يا إلهى ! إلى أى هدف يسعى هذا العدد الهائل من البشر فى حياة تفرض عليهم السعى وسط هذا الكم الهائل من الخطايا ، بحيث يرتكبون الجرائم الكثيرة ويقعون صرعى الأمراض الكثيرة ، وضحايا الحاجة والمعاناة » .

ويختتم كريفيكير كلامه برنة أسى عندما يقول : « إننا لابد أن ندفع الثمن الغالى جداً فى مقابل نصيبنا الضئيل من السعادة الاجتماعية التى نتمتع بها » طالما أنها لن تدوم طويلاً . ولعل رفض جيمس النهائى للمجتمع الذى سبق أن وضع فيه ثقته كان بمثابة اعتراف بالفشل . لم يكن يملك سوى أن يأمل أن صلاته الأخيرة : « أرجوك يا الله رب الطبيعة ألا تضيع كلية فضائلنا العريقة ونشاطنا الإنسانى » سوف تستجاب وأن « سلامنا القديم » سوف يسترد .

إن أهمية كتاب كريفيكير « رسائل من فلاح أمريكى » بالنسبة للأدب الأمريكى تكمن فى أنه أحد الإنجازات الأمريكية الأصيلة بكل المقاييس الإنسانية ، فقد استطاع أن يعبر خير تعبير عن الوعى القومى . لذلك يذكر دائماً مع كتاب فرانكلين « سيرة ذاتية » ، و « مذكرات » لجون وولمان ، و « يوميات » لصمويل سيوول ، و « ملاحظات حول فرجينيا » لجيفرسون . وبلاشك فإن كتاب كريفيكير يقف عند بداية التقاليد الأدبية الأمريكية :

أولاً فإن الكتاب يعكس الحياة الأمريكية بأسلوب مباشر عبر عيون غير أوربية بحيث

لا تبدو الأرض والناس ممثلين لأوربا التى أعيد زرعها أو تكوينها ، بل كعناصر لأمة ناهضة لها صفاتها الخاصة بها . ويملك كريفيكير موهبة التصوير الحى كما نجد فى وصفه للعاصفة الثلجية فى الغابة ، والحانة الريفية المزدحمة بالرواد . كذلك فهو موهوب أيضاً فى سرد الأحداث مثلما نجد فى الرعب المفاجئ الناتج عن غارة هندية ، وفى العراك بين اثنتين من الحيات فى حديقته كل هذا يجسد التجربة الأمريكية بأسلوب ملموس ، حقاً إن الرسائل تحتوى على قدر عظيم من المعلومات الدقيقة عن أحوال الحياة فى أواخر القرن الثامن عشر ، لكن كريفيكير يمتلك التزاماً عاطفياً تجاه المجتمع والمنظر الأمريكيين اللذين جعلا من كتابه شيئاً أكثر من مجرد تقرير مفيد . لقد استوعب الإمكانات الفنية للمضامين والمفاهيم الوطنية ، ولأن التجربة الأمريكية كانت قد استغرقته إلى حد كبير فإنه استطاع أن يستخرج منها أدبا .

ثانياً : فإن كريفيكير ساعد فى خلق اليانكى الأصيل المعتمد على نفسه والمستقل بذاته كشخصية أمريكية متميزة ، وكإنسان يستطيع أن يرعى نفسه بنفسه ، ويقف على قدميه لكى يواجه الحياة مواجهة الند للند . وعلى الرغم من أن كريفيكير رأى فى الشخصية الأمريكية بلا شك ما هيأت له الفردية الرومانسية أن يراه ، فإنه شكل نموذجه من عناصر غالبة أخرى مثل العنصر الإنجليزى والفكر الكالفنى ، والطاقات التى عرف بها سكان الحدود . فلقد أقام كل من جيمس وأندرو القادم من جزر الهبرايدز وبحارة نانتاكيت نظام العمل فى مجتمعهم على أساس الاهتمام بذات الإنسان الذى عرف به عصر التنوير . لم يعتمدوا فى شق طريقهم على الحظ ولكن « بالتدريج فى السلوك القائم على التحكم فى النفس والإخلاص والهجرة » بحثاً عن الفرص حيثما وجدت . إنهم ينتمون إلى التقاليد الشريفة التى سار على نهجها الشباب الطموحون مثل ابن فرانكلين وجمعية الشباب الأمريكى التى أسسها جاكسون ، والأبطال الذين صنعوا أنفسهم والذين نجدهم فى كتابات هوراشيو آلجر ، وحتى الشباب الذين نجحوا فى إنشاء الغرفة التجارية الصغيرة الخاصة بهم .

ثالثاً : فقد بدأ كريفيكير فى اكتشاف ما أصبح على الفور النغمة الأدبية الأساس فى أمريكا ، إنها نغمة تحليل الذات . لقد كان الأدب الأمريكى ولا يزال يعتمد على تحليل الأفكار والأحاسيس إلى حد بعيد للغاية قد يتجاوز أى حد آخر بلغته أية ثقافة غربية أخرى . كان كريفيكير أول من وضع السؤال العظيم : « من الأمريكى ؟ » الذى أدى إلى سؤال آخر : « ما معنى أن تكون أمريكيًا ؟ » ولقد سأل السؤالين أنفسهما منذ عهد كريفيكير – توكفيل ومسز

ترولوب وديكنز واللورد برايس ولاسكى وموروا ومايردال وحشد هائل من الدارسين والملاحظين ، لكن سؤالهم كان من خارج حدود أمريكا . أما كريفيكير فكان سؤاله من الداخل ، وإجابته على أساس أمريكى كما نجد فى إيمرسون ووينمان وهنرى جيمس ومارك توين ووليام فوكنر الذين قاموا بالمهمة نفسها من بعده . وبصفة عامة فإن الأدب الأمريكى كله محاولة للإجابة عن السؤال الذى كان الفلاح جيمس أول من وضعه .

وأخيراً عندما لم يجد كريفيكير إجابة فإنه حدد المشكلة المستمرة والرئيسية فى الحياة الأمريكية بأنها محاولة رأب الصدع أو سد الفجوة إلى حد ما بين أمريكا كواقع وأمريكا كمثل . إن الربط مابين الشك واليقين ، ما بين الإيمان والتردد – واضح إلى حد كبير فى كتاب كريفيكير ، وهو خاصية أمريكية بحتة .

فإن لم يجد كوتن ماثر فى أمريكا التى عاش فيها التحقيق العملى للكومنولث المثالى الذى خطط له المؤسسون التطهريون ، فإن كريفيكير لم يستطع أن يجد فى أمريكا ما بعد الثورة مملكة العقل والتنوير التى توقعها . ولقد تميزت الثقافة الأمريكية بهذا التوتر منذ البداية ، وهو التوتر الذى شعرنا به بعمق فى « رسائل من فلاح أمريكى » كنتيجة للإيمان بالمثل الأعلى البعيد الذى يرى أمريكا كجنة الإنسان وأمله فى حين أن الصراع مستمر ، ولا يهدأ لإخراجه إلى حيز التنفيذ ، هنا والآن . وهذا ينطبق على زماننا أيضاً كما انطبق من قبل على زمن كريفيكير .

ملاحظات

١ – كتب بالإنجليزية لكن كريفيكير ترجمه إلى الفرنسية فى طبعة مزيدة عام ١٧٨٧ . وكانت قد ظهرت ترجمة سابقة له عام ١٧٨٤ . وكانت بعض « الرسائل » التى تنقد الجانب الثورى فى أمريكا قد منعت من النشر فى طبعة لندن عام ١٧٨٢ . وقد احتوت طبعة ١٧٨٧ الفرنسية على القليل منها . أما الباقى منها فقد ظل مخطوطاً حتى الطبعة الأمريكية عام ١٩٢٥ . وأعيد طبع النسخة الإنجليزية الأصلية خمس مرات فى السنوات العشر التالية ، أما الطبعة الفرنسية المزيدة فقد طبعت ثلاث مرات ، كما كانت هناك طبعتان لترجمة ألمانية وأخرى هولندية .

٢ – كان جيفرسون بالطبع يكتب فى الوقت نفسه ، وهى الكتابات التى أصبحت بعد ذلك « ملاحظات على فرجينيا » ، ونشرت فى باريس عام ١٧٨٤ استجابة لطلب مماثل للحصول على معلومات عن فرجينيا ، وهو الطلب الذى تقدم به الماركيز دى بارب ماربوا الذى عمل سكرتيراً للوزير المفوض لفرنسا فى فيلادلفيا .